

سيد قطب والملاح الرومانسية في شعره

علي سليمي^١، فاروق نعمتي^٢

تاريخ الوصول: ١٤٣٣/٧/٢٩

تاريخ القبول: ١٤٣٣/١١/٢٠

تغلب الملاح الرومانسية على شعر سيد قطب، الأديب المصري الذي كان شاعراً وناقداً قبل أن يكون مفكراً ومفسراً إسلامياً. فترعته الرومانسية مكنته من رسم لوحة متكاملة شاملة، تظهر فيها صورة عامة لأهم الملاح الرومانسية ومظاهرها إضافة إلى تأثره بالعرفان الشرقي. لقد تأثر الشاعر بمدرسة العقاد ونظراته العميقة والعاطفية إلى الكون، وكل ذلك يتجه به نحو المذهب الرومانسي فتبلورت معالمه في أشعاره. الحنين إلى الوطن وذكريات الماضي، والشعور بالغربة الروحية العميقة، والدوبان في الطبيعة والتحدث معها، والحب والتغزل، والسياسة في عالم الخيال، والثورة على المجتمع وأفكاره، والإشادة بالحرية، والإحساس بالألم والحزن، كانت من أهم الملاح الرومانسية في شعر سيد قطب. في أكثر هذه الملاح نري سيطرة القوى الروحية على الشاعر، إذ أنه يرتبط روحياً بالكون وما وراءه. تدرس هذه المقالة رومانسية سيد قطب ضمن المنهج التوصيفي- التحليلي الذي يقوم باستقصاء ورصد أهم المضامين الرومانسية في شعره مع الإتيان بشواهد ونماذج شعرية تُعين على فهم الموضوع.

الكلمات الرئيسية: الملاح الرومانسية، الشعر المصري المعاصر، شعر سيد قطب، العقاد.

١. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة رازي كرمانشاه. Salimi1390@yahoo.com

٢. طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة رازي. Farough.nemati@yahoo.com

١- المقدمة

لقد اشتقت كلمة الرومانسية من الكلمة الفرنسية «Roman»، وهذه الكلمة تعني بها اللغات التي اشتقت من اللاتينية كإيطالية والفرنسية وغيرهما (فورست، ١٣٧٥: ٢٥). كما كانت كلمة «Romanz» في العصور الوسطى تعني حكايات المغامرات سواء كانت شعراً أو نثراً و«كانت صفة «Romantic» تطلق على المناظر والأشخاص التي تذكر بالقصص أكثر مما كانت تطلق على الأحداث التي تحكي في القصص» (هلال، ١٩٨١: ٦). وأما الرومانسية كمذهب أدبي، فهو يتميز بسمات خاصة، ويقوم على أسس فلسفية ونقدية بارزة، وقد طغت على المذاهب الكلاسيكية بدعوتها الهادفة إلى تحرير العاطفة من سيطرة العقل. ودعاة هذا المذهب «ينطوون على ذات أنفسهم، ويفرون من الحياة الجماعية التي لا يجدون فيها السكون والاطمئنان، ويلجأون إلى عالم من صنع خيالهم» (النويهي، ٢٠٠٠: ٤١٠).

إذن اتفق الكثير من الأدباء على أن النزعة الرومانسية هي تلك الصورة المكفهرة وطابع الألم والتبرم الشديد والصبوة العارمة والأشواق المتأججة التي تظهر على لسان المحب بعد الحرمان؛ ثم هي تلك الخواج النفسية المضطربة والمشاعر الجياشة التي تعصف بالأمني العذاب والآمال الحبالى؛ والتي تنشأ عن خيبة أمل وعن عجز الرومنطيقين عن إدراك ما يصبون إليه. ومما ساعد على انتصار الرومانسية في الأدب العربي المعاصر وانتشارها في حيز كبير المدارس الأدبية التي تجلّت في مدرسة الديوان، والمهجر، وأبولو. فقد دعت هذه المدارس إلى الاتجاه الوجداني في الشعر وتصوير ما يجيش في النفس من خيال وعاطفة وإحساس، والالتفات إلى الطبيعة من خلال عواطف الشاعر وأحاسيسه، والمطالبة بالوحدة العضوية

للقصيدة، والتحرر من أسر القافية الواحدة، والألفاظ الغريبة، والصور التقليدية. وكان لهذه المدارس دور كبير في تمهيد الطريق أمام التيار الرومانسي ليعم أنحاء مختلفة من البلاد العربية ومنها مصر، مسقط رأس سيد قطب.

سيد قطب هو أديب وشاعر يملك الموهبة، موهبة الإبداع والتذوق، وذلك خلال ثلاثين عاماً مع الشعر، غاص في أعماق النفس البشرية فأخرج لنا عشرات القصائد التي تتم عن نفس رقيقة شاعرة، لكنها عزيزة أبية غير هيابة؛ قصائده هادفة في ظلال الإيمان والعفاف، وأبياته كلمات حساسة معبرة وأساليب رقيقة مؤثرة، تجعل الإنسان مستمتعاً منتشياً، بل تذوب وجداً مع واقع الدنيا. هذا المقال يدرس المضامين الرومانسية في شعر سيد قطب ويحاول الإجابة عن السؤال التالي:

ما هي الملامح الرومانسية في شعر سيد قطب وكم تختلف رومانسيته عن الآخرين؟

٢- خلفية البحث

هناك دراسات وكتب كثيرة تدرس الجانب الديني من شخصية سيد قطب، ولكن ميزاته الأدبية لم تحظ بعناية كبيرة؛ فهناك مقالات وبحوث تناولت الجانب الأدبي، نذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر:

«سيد قطب؛ الكاتب المصري المعاصر» للباحث علي منتظمي (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طهران، العدد ١٣٩-١٤٠، ١٣٧٥ش، صص ١١٩-١٤٠)؛ يتحدث الكاتب فيها عن بعض الخطّات في حياة سيد قطب والتعريف ببعض آثاره الدينية والأدبية. «نظرة إلى المراحل والخصائص النقدية لسيد قطب» لخليل برويني وحسين جراغي وش (مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد ١١، ١٣٨٥ش، صص ٤٣-٧١)؛ يتحدثان

فيها عن آراء سيد قطب النقدية وميزاتها. «قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب: دراسة تطبيقية لنماذج من كتابات محمد مندور وسيد قطب ومحمد غنيمي هلال» للكاتب هومن ناظميان (مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة الأولى، العدد ٣، ١٤٢٧ق، صص ١٠٧-١٢٨)؛ تعطي هذه المقالة دراسة أسلوبية ولغوية في آثار هؤلاء الكتاب العرب المعاصرين ومنهم سيد قطب. «سيد قطب وتراثه الأدبي والنقدي» للباحث حسن سرباز (مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران (فرديس قم) السنة السادسة، العدد ١٠، ١٤٣١ق، صص ٤٣-٥٨)؛ يهدف الكاتب في هذه المقالة إلى بيان شخصية سيد قطب الأدبية والنقدية، والتطرق إلى تراثه الشعري والقصصي، وإلقاء الضوء على تراثه النقدي في مجال «القرآن الكريم» وفي مجال «الشعر والأدب»، ولكن لم يهتم الباحث بدراسة تحليلية لشعر سيد قطب. «أصداء شعر العقاد، في شعر سيد قطب» لحسن أحمد عبدالحاميد (مجلة كلية اللغة العربية، القاهرة، العدد ١٤، ١٤١٦ق، صص ١١٩-١٦٤)؛ هذه المقالة رصدت بعض التشابهات الموحدة في شعر سيد قطب وأستاذه العقاد ويهدف الكاتب فيها إلى إثبات تأثر سيد قطب بالعقاد. «خصائص التصوير الفني في شعر سيد قطب» للكاتبين كمال أحمد غنيم، وحنان أحمد غنيم (مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد ١٦، العدد ١، ٢٠٠٨م، صص ٤١-٩٤)؛ تناولت هذه الدراسة الخصائص الفنية والبلاغية في شعر سيد قطب معتمدة على نظريته النقدية في كتابه «التصوير الفني في القرآن»، التي طبق جمالياتها من خلال القرآن الكريم. «أسلوبية التكرار في التعبير عن شعور الاغتراب (شعر سيد قطب نموذجاً)» للباحثين جهانگیر أميري وفاروق نعمتي (مجلة جامعة القدس المفتوحة، فلسطين (رام الله)، العدد ٢٧ (١)، ٢٠١٢م، صص

١١٧-١٣٦)؛ تبحث هذه المقالة عن ظاهرة الاغتراب في شعر سيد قطب وتدرسها من الناحية الأسلوبية التي تعبر عن الحس الاغترابي لدى الشاعر. ومن الدراسات الأدبية الجادة التي تناولت أدب سيد قطب، كتاب «سيد قطب؛ حياته وأدبه» لعبد الباقي محمد حسين (١٩٩٣م)، الذي بذل الجهد الكبير في جمع ديوان الشاعر، ونشره بين الناس من جديد. هذا الكتاب يستقصى جوانب أدب سيد قطب النثري، مثل المقالة والنقد والقصة؛ بالإضافة إلى شعره الذي ركز على الحديث حول أغراضه الشعرية، وسمات تجربته، ولغتها...، لكن البحث عن النزعة الرومانسية في شعر سيد قطب لم تحظ بعناية واسعة. فمن المؤكد وبناءً على البحث الذي تمّ حول سيد قطب وآثاره، بإمكاننا أن نقول إنّ المضامين الرومانسية في شعره لا تزال غير مدروسة من قبل الدارسين، وهذه المقالة تُعالج هذا الموضوع بدراسة وتحليل هذه المضامين كما هو الشأن في الدراسات الأدبية التي تأتي في هذا الإطار.

٣- محطات في حياة سيد قطب وشعره

سيد قطب إبراهيم الشاذلي، وُلد عام ١٩٠٦، في قرية «موشا» من محافظة أسيوط في مصر. تخرّج عام ١٩٣٣ من دار العلوم حاملاً شهادة الليسانس في الآداب. التحق بحركة الإخوان المسلمين وخاض في معاركهم التي بدأت منذ عام ١٩٥٤، بدءاً من اعتقاله في نفس السنة، عندما اتهم الإخوان بمحاولة اغتيال الرئيس المصري جمال عبدالناصر. أفرج عن سيد عام ١٩٦٤، ولكنه عاد إلى السجن مرة أخرى وحُكم عليه وعلى مجموعة من أعضاء الإخوان بالإعدام، ونُفذ فيه الحكم في فجر أحد الأيام عام ١٩٦٦ (انظر: الخالدي، ١٩٩١: صص ٣٢٣-٤٨٢).

لقد مارس سيد قطب حياته العلمية أديباً وناقداً ولكن لم يعرفه كثير من الناس إلا كمفكر ومفسر إسلامي، و ذلك من خلال دراساته الإسلامية المتعددة مثل «في ظلال القرآن»، «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، «معالم في الطريق» و...، وقد أهملت دراسة ثقافته الأدبية والنقدية من جانب الكثيرين وبذلك ترك أدبه ومدرسته النقدية في زاوية النسيان (سرباز، ١٤٣١: ٤٢). مارس سيد قطب نظم الشعر في فترة مبكرة من حياته، فأخرج ديوانه الأول في عام ١٩٣٥، وديوانه الثاني في ١٩٣٧؛ وكانت الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٤٠، فترة ازدهار شاعريته (حسين، ١٩٩٣: صص ١٣٧-١٣٨). وله فضلاً عن ديوانه آثار أدبية رائعة، إليك نماذج منها:

١- التصوير الفني في القرآن الكريم: أول كتاب إسلامي لسيد قطب والذي طبع ١٩٤٥م؛ هذا الكتاب يقوم على تقرير القاعدة العامة المطردة للتعبير القرآني، وهي قاعدة «التصوير الفني»، حيث يستخدم القرآن طريقة التصوير في مختلف موضوعاته وأغراضه. وقد أثر هذا الكتاب في الدراسات البيانية الجمالية للقرآن، التي ظهرت بعده.

٢- مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الماضي: وهو أول كتاب نقدي كتبه سيد قطب، وقد كان في الأصل محاضرة ألقاها في قاعة كلية دار العلوم، وطبع سنة ١٩٣٣م.

٣- كتب وشخصيات: هو في الأصل مقالات نقدية كتبها المؤلف في مجلات مختلفة كالرسالة، والمقتطف، وغيرهما، ثم طبعها بهذا العنوان سنة ١٩٤٦م.

٤- النقد الأدبي؛ أصوله ومناهجه: أهم أثر نقدي لسيد قطب والذي طبع سنة ١٩٤٨م.

٥- المدينة المسحورة: قصة خيالية أسطورية، استوحاها من قصص ألف ليلة وليلة.

كتب سيد قطب الشعر، ونشر ديوانه الأول «الشاطئ المجهول» سنة ١٩٣٥م، ولكن «لم يحقق هذا الديوان نجاحاً يتساوي مع ما حققته دواوين أبناء جيل سيد قطب، ولم يتوقف أحد من النقاد الكبار أمام هذا الديوان» (النمنم، ١٩٩٩: ٢٩)، حتى أن البعض يصف أشعاره «بضعف التعبير أحياناً، وخطائيه وتقريريته أحياناً أخرى» (شلش، ١٩٩٤: ٢٣). وكل هذا يرجع إلى غلبة النزعة الدينية والسياسية على شخصية وفكر سيد قطب، وتجاهل قدرته الشعرية والأدبية. في الحقيقة، لقد اتسم شعر سيد قطب «بعمق النظرة إلى مشكلات الوجود وظواهر الحياة، وبالتوهج العاطفي وصدق التعبير عن النفس» (هيكل، ١٩٧٨: ٣٥٢)، وكان يميل في شعره إلى استخدام الصور والظلال وإضفاء الحياة على الجمادات، وبذلك يُعد من الشعراء المصورين، ولا غرابة في ذلك؛ لأن التصوير والتخييل هو الصفة الغالبة على أسلوبه، ولهذه الصفة جذوراً عميقة راسخة في نفسه وشعوره ومخيلته وأحاسيسه (الخالدي، ١٩٨٩: ٥٧).

تناول سيد قطب في شعره، قضايا مختلفة مثل إحساس الشاعر بالكون، وعلاقته بالله وبالحياة وبالناس، وإحساسه بالزمن، ومثل قضية المرأة والقضايا الاجتماعية والوطنية^(١). واللغة الشعرية عنده كانت حيّة نابضة رصينة ناجمة من إلمام الشاعر بالشعر القديم، ولكتّنها في العموم رقيقة عذبة تنأى عن المفردات الغريبة. وسرّ الكلمة عنده يكمن في استمدادها من ضمائر الشعوب، ومن مشاعر الإنسان، ومن صرخات البشرية، ومن دماء المكافحين الأحرار؛ إذ يقول: «إن السرّ العجيب ليس في بريق الكلمات وموسيقى العبارات؛ إنّما هو كامنٌ في قوّة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلولات! إنّهُ في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حيّة والمعنى المفهوم إلي

واقع ملموس» (قطب، ١٩٨٠: ١٣٨). ونلخص من ذلك أن سيد قطب كان «يعيش مع الآثار الأدبية لا سيما الشعر من عمق كيانه ووجوده؛ إذ يدوّب نفسه في إدراك النصّ وتذوّقه لكي يصل إلى أسرارهِ ورموزه» (برويني وجراني-وش، ١٣٨٥: ٧٠).

كان سيد قطب «أكبر المعجبين بالعقاد» (الجيوسي، ٢٠٠٧: ٥٦٠)، إذ أُعجب أوائل مسيرته الأدبية بمدرسة العقاد ويصفه بأنه أفضل شاعر وأقوى أديب في مصر (البدوي، ١٩٩٢: ٥٢). ويبدو أن سيد قطب كان «أقرب شعراء جيله من روح التجديد الراشد وأشدّهم تأثراً برائد المجددين عباس العقاد، تنظيراً وتطبيقاً» (عبد الحميد، ١٤١٦: ١٢٣). وشعر سيد قطب كان عاطفياً وجدانياً رومانسياً، كما يذكر ذلك حسن حنفي في مقدمة ديوان الشاعر (قطب، ٢٠٠٨: ٦)، فكلّ أشعاره تجارب إنسانية عامّة يمرّ بها كلّ إنسان بصرف النظر عن لغته وثقافته ووطنه وقومه.

٤ - سيد قطب ورومانسيته في الشعر

اتصال سيد قطب بالعقاد، فرض عليه قراءة أشعاره وتحليلها واستيعاب آرائه النقدية والدفاع عنها؛ هذا يعني «أن سيد قطب قد تعرّف على كثير من الشعر الرومانسي من خلال قراءته لشعر العقاد، وأيضاً من خلال اطلاعه على الشعر الذي كان يترجمه العقاد عن شعراء الرومانسية الأجانب» (حسين، ١٩٩٣: ١٠٨). إن الشاعر الحقيقي عند سيد قطب، «هو الذي يُحسّ بالحياة إحساساً عميقاً، ويترجم عنها للأحياء...» (قطب، ١٩٩٦: ١٤)؛ وفي فهمه لطبيعة الشعر ووظيفته، يذهب إلى أنّه «يحدّثك في أعماق نفسك، ويصف لك الشعور الحساس وصفاً غامضاً مبهماً، يدع لشعورك أن ينطلق، ولخيالك أن يتيه، لأنّه لا يضع أمامك

مقاييس وحدوداً، ولكنّه يدعك في ميدان فسيح من عالم الروح الرحيب» (م.ن: ١٢). فهذا كلّه يعني ترجمة عن معنى طبيعة الرومانسية ومعالمها.

تحدّث سيد قطب عن العمل الأدبي وعرفه بأنّه «التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية» (قطب، ٢٠٠٦: ١١)، وهذا التعريف كما هو معلوم، كان صدى واضحاً للشعر الرومانسي. يقول سيد قطب أيضاً في قصيدة «سعادة الشعراء» واصفاً حقيقة الشعر:

الشَّعْرُ مِنْ نَعَمِ الْحَيَاةِ عَرَفْتُهُ

وَعَرَفْتُ فِيهِ الْبُؤْسَ ضَرْبَةَ لَارِبِ

الشَّعْرُ ذَوْبُ حُشَاشَةٍ مَسْفُوكَةٍ

أَلَمَّا وَوَجَدْنَا فِي حَنِينِ ذَاهِبِ

(قطب، ١٩٩٢: ٥٣)

يفتح الشاعر في هذه الأبيات نافذة أمام روحه التوافقية إلى الرومانسية الأدبية، ليرينا كيف ينظر إلى الشعر نظرة رومانظيقية؛ فسيد قطب يرى الشعر نعمة من نعم الحياة وآية من آيات الجمال البارعة، فهو يعتبر الحبّ كشاعر رومانسي ثرافقه وتلازمه الأحزان والبأساء ملازمة الظلّ؛ فكأنّ البؤس والشقاء جزء من الحبّ الحقيقي لا يتجزأ؛ وكأنّ الحزن والأسى يشكلان لحمة الحبّ وسداه. ولو ألقينا نظرة عابرة في سيرة الشعراء الرومانظييين لوجدنا حياتهم مليئة بالآلام والمأساة الناجمة عن الحبّ، فالحبّ الحقيقي فعل بالشاعر كما فعل بغيره من أصحاب الحبّ، يعصر القلب ويُنْهَكَ الجسد ويُضْنَى القوى ويترك المحبّ يئنّ ويحنّ ويدوب وجداً، ولا يُبْقِي منه سوى جسد يُعاني ألماً وضنى وحشاشة تذوب حيناً. هذا ما نراه عند سيد قطب وغيره من الشعراء الذين انتهجوا نهج الحبّ وساروا على خطى الرومانسية الشعرية. فإذن، طبيعة الشعر عند سيد قطب، هو «الذي يخاطب العاطفة المبهمة أكثر مما يخاطب الفكر المحدود؛ العاطفة التي

لا تعرف القيود ولا التحديد، ولكنها تنبئ في كل واد»
(قطب، ١٩٩٦: ٦٤).

أعجب سيد قطب بالآداب الشرقية لاسيما الشعراء الإيرانيين مثل حافظ الشيرازي؛ إذ يصف غزليات حافظ بأنها «تساعد على انحسار الموجة الفكرية عن الشعر الحديث» (قطب، ١٩٨٣: ٧١)، وقارئها «يستروح فيها عطر الشرق البعيد وبساطته ومرحه» (م.ن: ٧١). هذه النزعة إلى الشرق والحياة الشرقية كانت سبباً آخر في الشعور الرومانسي عند سيد قطب؛ لأن الرومانسيين نشأوا في عصر التنوير الذي كان العقل مسيطراً عليه، فانزعجوا من ذلك وأرادوا أن يلففوا أرواحهم بشيء لا صلة له بالعقل. وهكذا صار كثير من الأدباء الرومانسيين ومنهم سيد قطب، مشتاقين إلى الآداب الشرقية وحتى نراه يستلهم بعض مضامينه الغزلية من الحافظ الشيرازي وغزله^(٢).

لقد اقترنت نزعة سيد قطب الرومانسية بميزات تمثلت فيما يلي:

أ: صارت القصيدة عنده تجربة شعورية، قادرة على مخاطبة مشاعر الآخرين، وتحريكها وإثارتها.

ب: جعل الشاعر أجزاء القصيدة تتماصك وتتحرّك نحو غاية محدّدة، وهذا ما حقّق لها وحدتها الفنية.

ج: اعتماده على الخيال إلى حد بعيد في بناء القصيدة ممّا جعلها بناءً تصويرياً، وهذا ما جعل القصيدة عنده لها مذاقها الخاص والمتفرد.

وسيد قطب - كشاعر رومانسي - ركز على الجانب الوجداني من تجربته الشعرية وعالج فيها موضوعات رئيسية تتّصف بمواصفات المذهب الرومانسي، منها:

٤-١- الحنين إلى الوطن

الشوق للوطن كان من أهمّ الملامح الشعرية عند الرومانسيين؛ فسيد قطب يتلهّف بشوق إلى بلده مصر

وربّاه وثرها وصباها، ثم يتطرّق لحنينه إلى الليالي التي قضاها مع رفاقه؛ فيبدو الشاعر في هذه الأبيات متعطّشاً لزيارة بلده وذكرياته الجميلة التي عاشها:

١- فِي النَّفْسِ يَا مِصْرُ شَوْقٌ

لِخَطَرَةٍ فِي رُبَاكَ

٢- لِضَمَّةٍ مِنْ ثَرَاكَ

لِنَفْحَةٍ مِنْ هَوَاكَ

٣- لِلْيَلَةِ فِيكَ أُخْرَى

مَعَ الرَّفَاقِ هُنَاكَ

٤- ظَمَانٌ تَهْتَفُ رُوحِي

مَتَى تَرَانِي أَرَاكَ؟

(قطب، ١٩٩٢: ٩٩)

يرسل الشاعر سلامه وتحيته لبلد اعتبره مهذاً للرجاء ومهبطاً لأحلامه؛ فقد سجّل تحية خاصة للريف دون المدينة لما يحتوي الريف من ذكريات وصفاء وأحاسيس احتلت مكانة مرموقة في قلب الشاعر:

مَهْدَ الرَّجَاءِ وَمَهَبَطَ الْأَحْلَامِ

وطني عليك تحيتي وسلامي

يا ريف فيك من الخلود آثاره

تنسأب في خلدي وفي أوهامي

وترد إحساسي إليك إذا خلّت

نفسي إلى الآمال والآلام

(م.ن: ٨٥)

٤-٢- الشعور بالغربة الروحية

كان الرومانسيون منعزلين عن المجتمع، والشاعر يريد أن يغترب ويتخلّص من المعاناة التي تُفرض عليه. فلهذا نراه في بعض الأحيان يلجأ إلى الطبيعة وتارة يحتزن، وأخرى يشيد بالموت وأخرى يتظاهر بالمرض و... وفي الواقع كلّ هذه المضامين

مساعٍ للتخلص من المجتمع والاغتراب منه. وفي الأبيات التالية يعبر سيد قطب عن غربته الروحية بأجمل تعبير فيقول:

غَرِيبٌ أَجَلٌ أَنَا فِي غُرْبَةٍ
وَإِنْ حَفَّ بِي الصَّحْبُ وَالْأَقْرَبُونَ
غَرِيبٌ بِنَفْسِي وَمَا تَنْطَوِي
عَلَيْهِ حَنَائِيَا فُؤَادِي الْحَنُونُ
غَرِيبٌ وَإِنْ كَانَ لَمَّا يَزَلْ
بِبَعْضِ الْقُلُوبِ لِقَلْبِي حَنِينٌ
غَرِيبٌ فَوَا حَاجَتِي لِلْمُعِينِ

وَوَا لَهْفَ نَفْسِي لِلْمُخْلِصِينَ
(قطب، ١٩٩٢: ٦٣)

إن التكرار هنا في كلمة «غريب» أربع مرات في كل بيت ينقب عن طبقات المعنى ويقوم بدور «التعويض» عن تلك الحالة الشعورية المسيطرة على الشاعر، ليصل إلى العمق المطلوب وهو التعبير عن اغترابه؛ «إن الغربة التي يعيشها سيد، ليست غربة عادية يعيشها أي إنسان غريب يسكن خارج وطنه بعيداً عن أحبابه وأقاربه؛ ذلك لأن سيد قطب كما صرح في هذه الأبيات يُقيم وسط أصحابه وأقرانه ويتمتع برعايتهم وعطفهم وحنانهم. إنما يكون هذا الاغتراب الذي بداخله ناجماً عن شعوره بالوحدة والانفراد في عالم الكون، فهو غربة فلسفية إن جاز التعبير» (أميري ونعمتي، ٢٠١٢: ١٢٦).

يؤكد سيد قطب على هذه الغربة الروحية ويعتبرها أشد من الغربة الجسمية؛ إنه يُتخيل نفسه منفرداً في وادٍ غريب لا صديق فيه ولا أنيس، حيث يقول:

وَحَدَّةُ الْأَرْوَاحِ أَكْبَى الْوَحَدَاتِ
وَحَدَّةُ الْأَجْسَامِ تُنْسَى وَتُهْوَنُ
أَيُّ بُؤْسِي تَسْتَحِثُّ الذِّكْرِيَّاتِ
كَانْفِرَادِ الرُّوحِ فِي وَادِي الشُّجُونِ

إِنَّ رُوحِي قَدْ تَنَاسَتْ «حَذَّ وَهَاتِ»
وَأَنْزَوَتْ فِي عَالَمِ حَمِّ السُّكُونِ
(قطب، ١٩٩٢: ٣٩)

يتحدث الشاعر مع نفسه ويحس بأن العالم كان بعيداً عنه، وليس بينهما رابطة أو صلة روحية؛ وهذه الوحدة الروحية والعرفانية عند الشاعر كانت أصل الحزن والألم:

حَدَّثَنِي أَنْتِ يَا نَفْسِي فَمَا
أَفْهَمُ الْعَالَمَ أَوْ يَفْهَمُنِي
إِنِّي أَنْكَرْتُهُ الْيَوْمَ كَمَا
أَنَّهُ بِالْأَمْسِ قَدْ أَنْكَرَنِي
لَمْ أَجِدْ فِي الْكَوْنِ إِلَّا أَلَمًا

إِنَّمَا الْوَحْدَةُ أَصْلُ الشَّجَنِ
(م.ن: ٣٩)

٤-٣- الشوق إلى الأيام الماضية

الشوق إلى الأيام الماضية وذكرياتها الجميلة ولا سيما أيام الطفولة، كان من مظاهر الشعر الرومانسي؛ لأن الرومانسيين كانوا منفردين عن الاجتماع بالآخرين، ويحبون أن يعودوا إلى الماضي وذكرياته. فقد كان سيد قطب أيضاً من هؤلاء الشعراء الذين يذكرون أيام صغرهم، وزمن كان مليئاً بالصفاء والبداة والسرور:

تَرَايَ لِنَفْسِي عَهْدُ الصَّغَرِ
فَتَشْتَاقُ نَفْسِي لِعَهْدِ الصَّغَرِ
لِعَهْدِ الرِّضَاءِ وَعَهْدِ الْحُبُورِ
وَعَهْدِ الصَّفَاءِ الْقَلِيلِ الْكَدَرِ
أَنَامُ وَأَصْحُو عَلَيَّ مَا أَشَا
ءُ طُرُوبَ الْفُؤَادِ قَرِيرَ النَّظَرِ

(م.ن: ٧٣)

يدعو الشاعر لهذه الأيام الجميلة بالخير والسعادة، ويشعر بالأسى لأنها تركته لأحزانه وهمومه:

ومن الظواهر التي نراها بكثرة في أدب الرومانسيين
حيال الطبيعة هي النجوى وبث الشكوى إليها، فلهذا نرى
ظاهرة التشخيص^١ بكثرة في أشعارهم. وقد عمد سيد قطب
إلى هذه الظاهرة في معظم قصائده؛ فظواهر الطبيعة عنده
أناسٌ تسير، وتخزن، وتحلم؛ بل جعلها تولول في بعض
الأحيان وتصمت في أحيان أخرى. وقد قال في قصيدة
«بعد الأوان»:

الآن والأَيَّامُ مُدْبِرَةٌ تُؤَلِّسُ بِاللَّوَاخِ
وَالْأَفُقُ مَخْضُوبُ الْأَدِيمِ وَقَدْ تَأَذَّنَ بِالرَّوَاخِ
أَقْبَلْتُ وَيَحْكُ تَبْسِمِينَ، فَأَيْنَ كُنْتَ لَدَى الصَّبَاحِ؟
وَجْهَ الْحَرِيفِ، يُطَلُّ فَاسْتَمِعِي لِإِعْوَالِ الرِّيَّاحِ...
(قطب، ١٩٩٢: ٤٩)

بل وجعل منها أصحاباً له، أكثر ما يتمتع تأملها
ومناجاة، حيث يقول:
أنا في الطَّيْبَةِ مُغْرَمٌ بِمَشَاهِدِ
تُلْهِي فُؤَادِي عَنْ أَعَزِّ رَغَائِي
اللَّيْلُ يُشْجِنِي بِرَائِعِ صَحْوِهِ
وَكَوَاكِبُ يَغْرُبْنَ إِثْرَ كَوَاكِبِ
وَالْبَدْرُ يُوجِي لِي بِسِرِّ طَوَافِهِ
مُسْتَوْحِشاً لَمْ يَأْتِنَسْ بِمُصَاحِبِ
(م.ن: ٥٤)

سيد قطب في شعره لم يتوقف عند حدود المظاهر
الطبيعية الصامتة بل تعداها إلى مظاهر طبيعية حيّة، فنراه في
قصيدة «بين عهدين»، يخاطب أنثى الطائر ويحثها أن تعود
إلى عشها:

طِرْتِ عَنْ عُشِّكَ الْجَمِيلِ فَأَوْبِي
شَدَّ مَا اشْتَقَّ طَيْرُهُ أَنْ تَوُوبِي!

رَعَى اللَّهُ عَهْدًا جَمِيلًا تَوَلَّى
وَحَلَفَنِي لِلْأَسَى ثُمَّ مَرَّ
وَأَسْلَمَنِي لِصِعَابِ الْأُمُورِ
وَكَيَّدِ الصُّرُوفِ وَطُولِ السَّهَرِ
(م.ن: ٧٣)

٤-٤- الذوبان في الطبيعة والتحدّث معها

«إنّ تركيز الوجه الرومانسي على الأحاسيس والعواطف
السامية، يجد في الطبيعة، البيئة المناسبة لتوفير علاقة
متشابهة تعزّز الانطلاقة الحرة للعاطفة» (سكر، ١٩٩٦: ١٠٠)؛
فإذن «كانت الطبيعة مادةً للوصف حيناً ومادة
حيناً آخر لنقل الحالات النفسية والأفكار والمعاني»
(الحاوي، ١٩٨٦: ٣٣)؛ لأنّ الرومانسيين في غورهم
أعماق الطبيعة ومشاركتهم الوجدانية لها، «يجدون في
المظاهر الطبيعية صوراً من أنفسهم فيقارنون بين هذه
المظاهر وعواطفهم ونوازعهم ومختلف أحوالهم» (مقدم
متقي، ١٣٩٠: ٦٢). ومن هذا المنطلق تُعدّ الطبيعة ملاذاً
للشاعر سيد قطب، ومهرباً له من الواقع عندما تشتدّ
الآزمات به، وليس من الغريب أن نجد لها مصدراً حياً في
شعوره الرومانسي، يعتمد عليها بشكل كبير في تشكيل
عالمه الجمالي. كأنّ الطبيعة تشارك الشاعر أحزانه، فيلجأ
إليها ناشداً الطمأنينة والمواساة التي افتقدتها في المجتمع. وهو
يعتمد في تصويره على مظاهر الطبيعة بنوعيتها الصامتة
والمتحركة، وإن كان استخدامه لصور الطبيعة الصامتة
أكثر. والدليل القاطع علي سيطرة عناصر الطبيعة على
شعور سيد قطب ولا شعوره، استعارته لعناوين معظم
القصائد^(٣) منها، وكذلك استخدامه لها كأدواتٍ للتعبير
عما يعاينه بطرائق مختلفة، وعما يجول في خاطره بأساليب
متنوعة.

1. Personification

مُنْذُ غَادَرْتِهِ قَدْ اَتَتْهُ الْحُبُّ

وَطَاحَتْ بِهِ رِيَا حُ الْمُبُوبِ
وَنَخَلَتْ عِنَايَةَ اللَّهِ عَنْهُ

فَهُوَ فِي وَحْشَةِ الْعَرِيبِ الْكُتَيْبِ

(السابق: ٩٤)

في هذه الأبيات يرى الشاعر سعادته وسروره في التحدث مع الطائر والاستماع لشدوه وتغريده، والابتعاد عن الناس الذين لا يرى فيهم إلا كل غادر وخبث؛ ربما كان الطائر في هذه القصيدة لرؤية سيد قطب العرفانية والمعرفية للحياة، استعمل رمزاً لروح الشاعر والتي غادرت منزلها الحقيقي؛ لأن سيد قطب يؤكد مراراً على القوى الروحية عنده ويعتقد بأنها «هي التي تربطه بالوحدة الكونية الكبرى... وأن الروح تحس بالوجود المطلق، لا يقيد الزمن، وبالبداهة لا يقيد المكان» (قطب، ١٩٩٢: ٣١)؛ وهذه الروحانية في كيان سيد قطب «ليست ألقاً يرف من حوله كالهالة، ولكنها سمة ملازمة لتكوينه منذ طفولته في القرية، مندفة في كل ذرة من دمه، وممازجة لروحه» (البدوي، ٢٠٠٢: ٩).

٤-٥- الحب والتغزل

لا شك أن الرومانسية كانت شعر الحب والأحاسيس (أشرف زاده، ١٣٨١: ٢٢٢)، فهذه الميزة تتبلور بوضوح في الحب للمرأة وجمالها؛ لأن «المعشوقة عند الرومانسيين كانت موجودة لا تنمحي ذكرها ويلجأون بها للشفاء من الآلام» (دادخواه، ١٣٨٥: ١٢٠). ولكن عن حب سيد قطب، نراه يرفع المرأة إلى مستوى الملاك وليست المرأة عنده متعة حسية وجسدية. لأنها كانت للمرأة عند أدباء الرومانسية منزلة عالية، والمرأة المحبوبة في أشعارهم تمثل دور الآلهة التي يعبدونها، فهذا «وجدوا في المرأة بعضهم الحبيبة

المعبودة والملهمة والملاك الذي هبط من السماء» (الأصغر، ١٩٩٩: ٦٤). إن حب الرومانسيين كان نتيجة عاطفتهم الصادقة ومشاعرهم الوقادة وخيالهم المجتج و«إن من يشاهد نتاج الأدباء الرومنطيين يخرج بخلاصة لا تشوبها شائبة، وهي أن الحب عندهم أقوى العناصر الذاتية والمشاعر العاطفية على الإطلاق، لدرجة وصل فيها حدود العبادة والقداسة تماماً كعبادة الله أو الطبيعة» (الأيوبي، ١٩٨٠: ١٧٩).

وعلى هذا الأساس اتجه سيد قطب إلى تقديس الحب والخضوع لسلطانه؛ فعاطفة الحب عنده كانت بمثابة تجربة روحية ترتبط بالمعاني الطاهرة والعفة والصمود أمام الشهوات. هذه العاطفة الصادقة جعلت الشاعر يرى الحب نوراً وروحاً خفية هبطت من السماء لتطهر النفوس من الأدران:

إِنْ ذَكَرْتُ الْحُبَّ قُدْسِيًّا نَقِيًّا

حَسْبُوهُ مِنْ خِيَالِ الشُّعْرَاءِ

إِنِّي أُدْرِكُهُ رُوحاً خَفِيًّا

يَهْبِطُ الْأَرْضَ وَمَأْوَاهُ السَّمَاءُ

(قطب، ١٩٩٢: ٤٠)

ويقدر الشاعر الحب والجمال أيضاً في قصيدة عنوانها «عبادة جديدة»، فيقول:

لَكَ يَا حَمَالُ عِبَادَتِي

لَكَ أَنْتَ وَحَدِّكَ يَا حَمَالُ

تُعْصِي تَعَالِيمُ الطُّغَا

ق، أَوْ الْمُدَاةِ عَلَى ضَلَالِ

وَيُخَالِفُ التَّشْرِيعَ جَهْرًا،

أَوْ خَفَاءً فِي احْتِيَالِ

وَتُجَانِبُ الْأَدْيَانَ أَوْ

تُنْسَى وَتُهَجَّرُ عَنْ مَلَالِ

وَأَرَاكَ وَحَدَّكَ يَا حَمَلُ

تَلْقَى الْخُضُوعَ وَالْاحْتِفَالَ

وَالْحُبَّ وَالْإِيمَانَ مِنْ

كُلِّ الْأَنَامِ بِكُلِّ حَالٍ!

(م.ن: ٩١)

المرأة عند سيد قطب، هي السر الذي انتصرت به الحياة

على الموت، ولولاها ما كان الوجود:

أَلَسْتُ الَّتِي نَبَضَتْ «الْوُجُودُ»

فَشَقَّ قُوَى «الْعَدَمِ» السَّاحِرَةَ

بَلَى ! أَنْتِ سِرُّ انْتِصَارِ الْحَيَاةِ

عَلَى الْمَوْتِ فِي الْوَقْعَةِ الظَّافِرَةِ

(م.ن: ١٧٥)

وهي رسول الحياة للشاعر، وحبها لها كان معجزة:

وَمَا أَنْتِ إِلَّا رَسُولُ الْحَيَاةِ

وَحُبُّكَ مُعْجَزَةٌ مِنْ نَبِيِّ

(م.ن: ١٧٤)

في رؤية سيد قطب كان الحب طاهراً وقدسياً شأنه شأن

عصمة الأنبياء؛ الحب الذي كان بعيداً عن الخطأ والفساد،

وفيه بقية من الخلود، يرتفع بالروح عن أخطاء الجسم

ويتجاوز بها حدود الزمان و المكان إلى عالم النور والضياء:

عِصْمَةُ الْحُبِّ مِنْ صَنِيعِ السَّمَاءِ

وَهِيَ صِنْتُوْ لِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ

وَعَنَاءُ عَنِ الْخُلُودِ غَرَامٌ

هُوَ رَمَزٌ وَوَصْلَةٌ لِلْبَقَاءِ

وَهُوَ يَعْلُو بِالرُّوحِ عَنْ خَطَلِ الْجِسْمِ

م وَيُضْنِي عَلَيْهِ ثَوْبَ الضِّيَاءِ

هُوَ نُورٌ وَمَا الْخَطِئَةُ إِلَّا

ظُلْمَةٌ أَوْ حَلِيفَةُ الظُّلَمَاءِ

(م.ن: ١٩٨)

إنَّ الحبَّ كما يقول سيد قطب عاطفة إنسانية قد

تكون هادئة وثائرة، راضية وحانقة، وفي كل حالة تحتاج

إلى تعبير مناسب (قطب، ١٩٩٦: ٦٦)؛ وبالتالي فلا

عجب في أن نجد الشاعر يثور على الحب الذي تصاحبه

الحيرة ويشوبه الكدر وتشوّهه الظنون؛ فيقول في قصيدة

«الحبُّ المكروه!»:

كَرِهْتُكَ أَيُّهَا الْحُبُّ

كَرَاهَةً مُحَنَّقٍ^(٤) غَاضِبٍ

وَضَجَّ بِهَوْلِكَ الْقَلْبُ

وَمَا تَبْلُؤُهُ مِنْ وَاصِبٍ^(٥)

كَرِهْتُكَ حَيْرَةً كَبْرِي

جَحِيماً كُلُّهُ حَرَقٌ

كَرِهْتُكَ لَهْفَةً حَرَى

وَشَوْقاً كُلُّهُ نَزَقٌ

(قطب، ١٩٩٢: ٢٠٠)

الحب عند الشاعر كان طاهراً وهو يصون عهده

وميثاقه للحب حتى يتجرّع كؤوس الموت ويقضي نجه

شهيداً في سبيل الحب:

أَمْلِي الَّذِي قَدْ كَانَ لِي هُوَ أَنْ يَعِيَ

شَ الْحُبُّ فِينَا طَاهِراً وَمُكْرَماً

سَأَصُونُ عَهْدَ الْحُبِّ عَقّاً طَاهِراً

حَتَّى أَمُوتَ بِهِ شَهِيداً مُعْرَماً

(السابق: ٤٥)

٤-٦- السياحة في عالم الخيال والبحث عن المثالية

كان الرومانسيون يميلون إلى خلق عالم مثالي، لأنهم كانوا

متعبين من الظروف التي كانت حصيلة الحياة العقلية

والصناعية؛ لهذا أكثروا من الهروب من الواقع إلى العالم

المصنوع في أذهانهم، كما يقول جورج صاندل: «إن الفن ليس تصويراً للواقع الحقيقي، بل هو بحث عن الحقيقة المثالية» (المرعي، ١٩٩٦: ١٨٧). فهم «يخسّمون الحوادث كما تقتضي أهواءهم الروحية وكانوا يصوّرون الناس كما تستلزم احتياجاتهم النفسية» (ميترا، لاتا: ١٠٤).

شكل الخيال مصدراً عاماً من مصادر الصورة الشعرية عند سيد قطب، و«وسيلة لسبر أغوار معالم أوسع وأرحب من عالمه المادي المحسوس؛ بهدف الوصول إلى حقائق أشمل وأعمق من حقائق العالم الحسي الذي يعيشه» (غني، ٢٠٠٨: ٨٦). وقد عاش سيد قطب في قرية رائعة الجمال، بالإضافة لحفظه القرآن عن ظهر قلب، وتنمية روح الخيال عنده من خلال الروايات الخيالية عن الحب والأساطير؛ فالتقط الصور التي أخذها من الروايات مع تلك التي أخذها من القرآن ومن صور الطبيعة الخلابة، كل ذلك أدى إلى تفتيح خيال سيد قطب، الذي كان بطبيعته صاحب نفسيّة متخيّلة وحاملة. «وعندما كان يمعن النظر في الواقع المادي المرّ البائس، الذي يعانیه مجتمعهم؛ يصيبه الضيق، ويسيطر عليه الألم، وينصرف إلى عالمه الخيالي الهادي؛ يضع حدوده، ويرسم ملامحه، ويظهر معالمه» (الخالدي، ١٩٨٩: ٧٣). يجعله الخيال يتصوّر أنّ الشوك يجرح القلب، وأنّ الدنيا تغلق المنافذ والطرق أمامه، هو ومحبوته، فيقول:

نَعَمْ قَدْ أَدْمَتِ الْأَشْوَاكُ قَلْبِنَا
وَسَدَّتْ هَذِهِ الدُّنْيَا طَرِيقِنَا
وَلَكِنْ أَيْنَ مَاضِي حُبِّنَا؟ أَيْنَا

(قطب، ١٩٩٢: ٩٦-٩٧)

يرسم الشاعر في خياله حنة لنفسه وهي التي غادرها والآن يتخبط حيران في الصحاري والمقفرات:

فَقَدْ تُكَّ يَا حَنَّتِي السَّاحِرَةَ

وَعَادَرْتُ أَفْيَاكَ الْعَاطِرَةَ

وَهَمْتُ تُشَرِّدُنِي الْمُقْفِرَاتُ

وَتَلَفَحُنِي كَاللَّطَى الْهَاجِرَةَ

(م.ن: ١٨٣)

٤-٧- العزلة عن الناس والثورة على الظلم

الأوضاع المساوية التي أحاطت بالجمتمع المصري بسبب الاستعمار من ناحية، والتخلف والجمود لدى الناس ولا سيما الشباب من ناحية أخرى، أثرت على نفسيّة الشاعر الحساسة تأثيراً قوياً مما جعله يحزن ويتعذب أشدّ العذاب. يتألم سيد قطب من خمود شباب وطنه ويصبّ كؤوس الغضب والعتاب عليهم مُعرباً عن أسفه واستياءه لما يرى في شخصيّتهم من أنوثة وميوعة وميلهم إلى السلوك النسوي؛ فالهاجس الذي يعيشه الشاعر يجعله يخاطب الشباب بأسلوب ملؤه الازدراء والاحتقار، وهو خوض الشباب في مستنقع من المتهاتات والضياع:

يَا شَبَابَ النَّيْلِ مَاذَا؟ وَيُحْكَم !

أَفَأَنْتُمْ حَيْثُ يُحْيِيكُمْ دُعَاءُ ؟

يَا شَبَاباً نَاعِماً مُسْتَأْنِثاً !

كَذَوَاتِ الْخِذْرِ^(٧) فِي ظِلِّ الْخِيَاءِ

يَا شَبَاباً تَافِهَهَا مُحْتَقِراً

تَأْنَفُ الْأَجْيَالُ مِنْهُ فِي اِزْدِرَاءِ

يَا شَبَاباً هَمُّهُ لَذَائِهِ

فَهُوَ يَحْيَا بَيْنَ كَأْسٍ وَخَنَاءِ^(٨)

يَا شَبَاباً قَصُرَتْ آمَالُهُ

كَخَشَاشِ^(٩) الْأَرْضِ مَرَمَاهُ الْغِذَاءِ

يَا شَبَاباً نُكِبَ النَّيْلُ بِهِ

فِي الْأَمَانِي وَالتَّعَلَّاتِ الرِّضَاءِ

(م.ن: ٢٦٢)

1. George Sayd

في هذه الأبيات لا يريد سيد قطب انتقاص شباب بلده وتقزيم شخصياتهم، بل إن الذي يريده هو إثارة روح الغيرة والحماس والرجولة فيهم، وحثهم على الابتعاد عن سلوكيات خاطئة وأوصاف أنثوية، ثم يحذر الشاعر الشباب من أنهم إذا دأبوا على هذا المنهج الرديء وظلّوا عاكفين على هذا السلوك المخزي، فإن الأجيال القادمة ستقبحهم وتلعنهم لعناً كبيراً. فيكاد ينفطر قلب الشاعر حسرةً ولماً عندما يرى شباب مجتمعه الذين هم بُناة المستقبل وصانعو الغد يتزيتون بزينة النساء ويتعدون عن الأخلاق الكريمة والشجاعة والفروسية، ويتجهون نحو أخلاقيات ربّات الحجال وسيدات صالات التجميل؛ ثم يذكرهم الشاعر بأبائهم وأجدادهم الذين كانوا رمزاً للشجاعة والسؤدد، ويدعو الشباب كناسح أمين إلى العودة للذات والأخذ بثقافة الماضين والاحتذاء بمجذوهم. وختاماً يشدد سيد قطب على أن الرقي والتقدم الحضاري لا ينسجمان مع التحلل والجون، فإذا أراد الشباب مواكبة الحضارة الراقية واللاحق بركبها فعليهم الالتزام بمبادئ الدين القويم والأخلاق السامية.

عزلة سيد قطب عن الناس عامة والشباب خاصّة، ليست ناجمة عن ابتعادهم عن الأخلاق الكريمة وقصور آماهم وغنياتهم فحسب، بل هي وليدة أيضاً لاعتبار الشاعر الناس عاجزين عن الإلمام بأسرار الحياة والإدراك لحقائقها، حيث يرى الشاعر نفسه على مستوى عالٍ من هذه المعرفة الدقيقة للحياة وأسرارها وخباياها، فيقول:

أَأُنَاسِيًّا أَرَى أَمْ حَشَرَاتٍ

شَوَّهَتْ مِنْ طَلْعَةِ الْكَوْنِ الْجَمِيلِ؟

يُشَبِّهُونَ النَّاسَ فِي تِلْكَ السَّمَاتِ

بَيْنَمَا أَنْفُسُهُمْ رَجَسٌ يَسِيلُ !

حَقَرُوا الْكَوْنَ وَأَغْرَضَ الْحَيَاةَ

حَسَبُوهَا دَنَسًا فِي دَنَسٍ

وَصَعَارًا لَيْسَ يَرْضَاهُ إِلَهٌ

وَهَبَ الْأَرْوَاحَ نُورَ الْقَبَسِ^(١٠)

إِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَعْنَى الْجَمَالِ

إِنَّهُمْ قَدْ جَاهَلُوا سِرَّ الْوُجُودِ

وَإِذَا طَالَعَهُمْ طَيِّفُ الْكَمَالِ

لَا حَاجَ يَهْفُو، تَوَلَّوْا فِي جُمُودِ

فَهَمُّوا الْعَيْشَ طَعَامًا وَشَرَابًا

وَرَوَاحًا حَيْثُ شَاءُوا وَغَدُورًا

أَنْفُسٌ كَالْكَهْفِ مَا زَالَتْ خَرَابًا

مِنْ شُعُورٍ يُلْهِمُ النَّفْسَ السُّمُورًا

(م.ن: ٤٢-٤٣)

يلمس المتتبع في هذه الأبيات ميل الشاعر إلى لون من العزلة بوسعنا أن نسميها عزلة معرفية أو معنوية؛ فالناس حسب رأي الشاعر لا يكتفون كنه الوجود ولا يدركون خبايا الكون، بل إنهم متورطون في مجاهل الحياة منشغلين بطواهر الدنيا؛ بينما يجد الشاعر في نفسه طاقة معرفية هائلة لحقائق الأشياء، حيث تجعله هذه المقدرة الذاتية ينظر إلى العالم نظرة إعجابية، تفيض بالفهم الدقيق والغوص في قرارة الأشياء. فالشاعر لا يرى العالم كما يراه الآخرون كمجموعة من الأشياء المتناثرة لا رابط بينها ولا صلة؛ بل ينظر إلى الوجود كمنظومة مترابطة متناسقة يربط عناصرها رابط معنوي يلمّ شملها ويرأب صدعها. فلا يمكن لدى سيد قطب الحصول على نظرة شاملة لحقائق الحياة إلا إذا اعتبرناها وجوداً واحداً وكتلة شاملة. وقد سُمّي هذا النمط من المعرفة تجاه العالم بوحدة الوجود، وتلمّس من الأبيات السابقة بصمات واضحة لهذه المعرفة لدى الشاعر، والعزلة التي يعيشها الشاعر إنما هي ناجمة عن هذه الفكرة التي تجعل الشاعر في مستوى أعلى ومكانة أسمى في الإحاطة بأسرار الكون وعجائب الحياة.

إلى جانب هذا فقد أشار سيد قطب في قصيدة «مأساة البداري (١٢)» إلى الحياة الصعبة المريعة التي يعيشها شعبه تحت وطأة الظلم والاستبداد ويشبه الظالمين بالوحوش بل أسفل منها:

فِي أَيِّمَا بَلَدٍ نَعِيشُ؟ وَأَيِّمَا

عَهْدٍ يَمُرُّ عَلَى الْكَثَائَةِ مُظْلِمٌ؟
عَهْدٌ نُسَامُ الْحَسَفَ فِيهِ وَنُبْتَلَى

نَقَمًا إِذَا قَمْنَا نَضِجُ وَنَنْقُمُ
وَحَشِيَّةٌ كَشَفَ الزَّمَانُ حِجَابَهَا

لَا بَلَّ أَشَدُّ مِنَ الْوُحُوشِ وَأَظْلَمُ
الْوَحْشُ يَفْتِكُ جَائِعًا وَيَعْفُ عَنْ

فَتَكَاتِهِ إِذَا مَا يَعِبُّ وَيَطْعُمُ
(م.ن: ٢٨١)

٤-٨- الإشادة بالحرية

كان الأدباء الرومانسيون يعتبرون القواعد الاجتماعية والدينية الموروثة عائقة في سبيل إنتاج آثار جيدة والتعبير عن المعاني التي يعيشونها، ويعتقدون أن الفنان لابد أن يكون حرًا حتى يستطيع أن يبدع أثرًا و«إن تكبت مشاعره بسبب ضغوط المجتمع والقوانين الأخلاقية أو الموهومات، يتخلف ولا تنكشف طاقاته المكتومة» (ثروت، ١٣٨٥: ٨٥). ويمدح سيد قطب الحرية ويحسبها شيئًا ملازمًا للروح والتي كانت حبيبة عند الأطفال والشيوخ، فيقول في قصيدة له بعنوان «الحبيبة المنشودة»:

تَيَّمَتْ كُلُّ فُؤَادٍ فِي هَوَاهَا

وَاسْتَوَتْ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ فِي حَشَاهَا
مُرْجَتْ بِالرُّوحِ فِي تَكْوِينِهَا
فَهِيَ لَا تَرْضَى بِهَا شَيْئًا سِوَاهَا

فَتِنَ الطُّفْلُ بِهَا فِي مَهْدِهِ

وَعَرَامُ الشَّيْخِ فِيهَا قَدْ تَنَاهَى
(نقلًا من الخزامي، ٢٠١٠: ٤٩)

ثم يقول في آخر القصيدة أن الأحرار ضحوا بأعلى ما يمتلكونه بفخر واعتزاز واعتبروا تلك التضحية في سبيل الحرية شيئًا رخيصًا:

جَاهَدَ الْأَحْرَارُ فِي مِيدَانِهَا

ثُمَّ مَاتُوا بِفَخَارٍ فِي حَمَاهَا
لَوْ يَضْحَكُونَ فِي هَوَاهَا عَلِيًّا

كُلُّ مَا عَزَّ رَخِيسٌ فِي هَوَاهَا
(م.ن: ٥٠)

٤-٩- الإحساس بالألم والحزن

ظاهرة الألم ظاهرة عامة قد انعكست في الأدب وكانت في أدب الرومانسيين أشد انعكاسًا. وقد عالج سيد قطب هذه الظاهرة في معظم قصائده؛ ولكن شعره بالألم كان مرده ألمًا روحيًا ونفسيًا. إنه يصور حياته البائسة، ونفسيته المضطربة فيلجأ إلى تصويرها بنار الحميم المستعرة، ويحاول أن يضفي عليها صورة أكثر مما هي عليه في سقر، حيث قال:

أَحْيَاءُ أُمِّ نَارُ الْجَحِيمِ

بَلْظَاهَا الْهَائِجُ الْمُسْتَعْرِ؟
لَا . فَفِي نَفْسِي مِنَ الشَّجْوِ الْأَلِيمِ

مِنْ حَيَاتِي فَوْقَ مَا فِي سَقَرٍ
(قطب، ١٩٩٢: ٤٢)

إنَّ الألم والبؤس كانا مسيطرين على الشاعر وهو يتخبط في وادي الحزن والأسى خبطًا عشوائيًا:
سَأْنَامُ مَهْمُومًا وَأَصْحُو حَائِرًا
وَأَهِيمُ فِي وَادِي الْأَسَى مُتَأَلِّمًا

وَيَحْيِيْمُ الْبُؤْسُ الْمَيِّتُ فَلَا أَرَى

إِلَّا شَقَاءَ فِي الْحَيَاةِ مُخَيِّمًا

(م.ن: ٤٤)

والشاعرية أيضاً أصبحت بالنسبة للشاعر مصدر ألم وتعب، وذلك على العكس من الرومانسيين الذين كانوا يجدون «في الشعر عزاء عن الشقاء الذي يعانونه من الواقع من حولهم» (مندور، ١٩٥٧: ٦٢)، والسر في هذا ما قاله الشاعر نفسه:

دَعْنِي وَلَا تَنْفُسْ عَلَيَّ مَوَاهِي

خُذْهَا وَخُذْ أَلْمِي وَمَتَاعِي

دَعْنِي فَلَسْتُ كَمَا حَسِبْتَ مُنْعَمًا

بِمَوَاهِبَ مَلَكَتْ عَلَيَّ مَذَاهِي

الشَّعْرُ مِنْ نِعَمِ الْحَيَاةِ عَرَفْتُهُ

وَعَرَفْتُ فِيهِ الْبُؤْسَ ضَرْبَةَ لَازِبٍ

الشَّعْرُ ذَوْبُ حُشَاشَةٍ مَسْفُوكَةٍ

أَلَمًا وَوَجْدًا فِي حَنِينٍ ذَاهِبٍ

(قطب، ١٩٩٢: ٥٣)

النتائج

في خاتمة البحث يمكن الإشارة إلى بعض الملاحظات والنتائج، وهي:

- يُعدُّ الشاعر المصري سيد قطب من أبرز الشعراء الرومانسيين الذين أخلصوا لهذا المذهب الشعري؛ في حين كان سيد قطب يمزج نزعاته العرفانية التي تنبعث عن إيمانه الروحي بما وراء الكون وخالفه. فقد كان قويّ التزعة، شديد الانتماء إلى أرضه التي عشقت وتعشق الحرية، إنساني التطلع والطموح بغنائته الرومانتيكية المتأججة شعوراً حميماً ووجداناً صميماً وفكراً سليماً.

- يظهر من شعر سيد قطب أنه يميل إلى الرومانسية باتجاهيه الذهني المتأثر بمدرسة «الديوان» وشخصية العقاد، والوجداني المتأثر بمدرسة «أبولو»؛ حيث نجد في شعره تدفق العاطفة وحرارتها، وصدق التجربة، وحب الحق والخير والجمال، وحب المثل العليا، وتحليل المواقف الإنسانية، والامتزاج بالطبيعة والذوبان فيها؛ ويدل على وجود هذه التزعة الرومانسية في شعره عنوان ديوانه الأول «الشاطئ المجهول»، كما يدل عليها عناوين بعض قصائده مثل «النفس الضائعة»، «وحي الخلود»، «حليم النيل»، وغير ذلك.

- يهدف سيد قطب في شعره الرومانسي إلى غايتين: أولاًهما توفير المتعة للمتلقى نتيجة المشاركة الوجدانية بينهما والتي تُثار فيها المشاعر لدى المتلقى شبيهة بما شعر بها الشاعر أثناء إبداعه؛ وثانيتهما الكشف عن الحقيقة في أعماق صورها.

- ينظر سيد قطب إلى الشعر على أنه تعبير عن نفس الشاعر أو «ترجمة باطنية»، بحيث لا يخفى فيها ذكر خواجه ولا هواجسه، وهي تعكس كل مضامينه الرومانسية بأجمعها.

- لقد تجلّت المظاهر الرومانسية في أكثر أشعار سيد قطب، وهذا ما نراه واضحاً وجلياً من خلال أفكاره ومبادئه التي تتضمن عواطف الحزن والكآبة والأمل، وأحياناً الثورة على المجتمع والتحليق في رحاب الخيال والصور والأحلام.

- لقد كان حبّ سيد قطب للطبيعة ممتزجاً بنفسه؛ بحيث يقدم لنا دائماً صوراً رائعة للاتحاد الخصب بين الشاعر والطبيعة التي كانت عنده رمزاً للظهر ومثالاً عالياً للاحتذاء والافتداء ومعبدًا للروح ومستودعاً للأسرار والهموم. فإذا كان الحب والتغزل بالمرأة وجمالها سمة عامة

مشتركة في شعر الرومانسيين، ولكن سيد قطب تفرّد بنظرته العرفانية للمرأة وحبه لها.

- كان الخيال سمة بارزة من سمات الشعور عند الرومانسيين، وقد شكل حضوراً بارزاً في شعر سيد قطب؛ ولكن خياله خيالاً هادئاً، أثار له الطريق وهو كذلك خيالاً محمود، نتائجه إيجابية وليست مدمومة. فقد كان سيد قطب خلافاً للكثير من الرومانسيين متفائلاً بالحياة، وقد شغف بشعر حافظ الشيرازي وعرفانه فتأثر به ومال إلى التزعة العرفانية فتبلورت معالمها بوضوح في أكثر شعره، وهذا هو الفرق بينه وبين الرومانسيين الآخرين.

٧- خناء: المراد الفساد.

٨- خشاش: حشرات الأرض.

٩- القيس: النار أو شعلة منها.

١٠- يقول سيد قطب في مقدّمة هذه القصيدة (١٩٩٢: ٢٨١) واصفاً هذه الواقعة الأليمة: «ليس في مصر من لا يذكر هذه المأساة الوحشية التي مثلها مأمور البداري المقتول مع أهالي البداري عامّة؛ وسجين البداري خاصّة.»

المصادر والمراجع

الف) الكتب

[١] الأصغر، عبدالرزاق (١٩٩٩م) المذاهب الأدبية لدى

الغرب، ط١، بيروت: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

[٢] الأيوبي، ياسين (١٩٨٠م) مذاهب الأدب: معالم وانعكاسات، ط١، طرابلس: دارالعلم للملايين.

[٣] بدوي، أحمد محمد (٢٠٠٢م) سيد قطب ناقداً، ط١، القاهرة: الدار الثقافية للنشر.

[٤] — (١٩٩٢م) سيد قطب، نقاد الأدب (١٠)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[٥] ثروت، منصور (١٣٨٥ش) آشنائي با مكتبهاى ادبي (التعريف بالمدارس الأدبية)، طهران: منشورات سخن.

[٦] الجيوسي، سلمى الخضراء (٢٠٠٧م) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ط٢، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

[٧] الحاوي، إيليا (١٩٨٦م) في النقد والأدب: مذاهب فنيّة غربيّة عربيّة، ط٢، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

الهوامش

١- تولّى سيد قطب كناقداً أدبيّ نقد شعره بنفسه، وذلك فيما بعد في ضوء التصوّر الإسلامي، لتبيين انحراف نماذج من شعره عن القيم الإسلامية (أنظر: البدوي، ١٤٠٦: ١٠٠-١٠١).

٢- ارجع حول ذلك إلى مقالة بعنوان: «تجلّي عرفان حافظ في غزل سيد قطب»؛ والتي قدّمت في مؤتمر «حافظ في الآداب العالمية» المنعقد في جامعة طهران سنة ١٣٩٠ش. (للكاتبين علي سليمي وفاروق نعمتي)، ففي هذه المقالة وردت نماذج من غزليات مشتركة بين سيد قطب والحافظ الشيرازي، إذ تظهر فيها تأثير الحافظ الشيرازي في قطب.

٣- من القصائد التي استقى الشاعر فيها من بعض عناصر الطبيعة: خريف الحياة، وفي السماء، وفي الصحراء بين الظلال، ووردة ذابلة، وغيرها.

٤- محنق: شديد الغيظ.

٥- واصب: من وصّب: مرض.

٦- ذوات الخدر: الفتيات الأبقار اللاتي يلازم خدرهنّ.

- [٨] حسين، عبد الباقي محمد (١٩٩٣م) سيد قطب: حياته وأدبه. ط٢، المنصورة: دار الوفاء.
- [٩] حفني، حسن (٢٠٠٨م) مقدمة الأعمال الشعرية الكاملة لسيد قطب، ط١، دمشق: مركز الناقد الثقافي.
- [١٠] الخالدي، صلاح عبدالفتاح (١٩٩١م) سيد قطب؛ من الميلاد إلى الاستشهاد، ط١. دمشق - بيروت: دار القلم - الدار الشامية.
- [١١] ——— (١٩٨٩م) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ط٢، جدة: دار المنار.
- [١٢] الخزامي، آمال (٢٠١٠م) سيد قطب: في ظلال صاحب الظلال، ط١، بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.
- [١٣] شلش، علي (١٩٩٤م) التمرّد على الأدب: دراسة في تجربة سيد قطب، ط١، بيروت - القاهرة: دار الشروق.
- [١٤] فورست، ليليان (١٣٧٥ش) رومانتيسم، ترجمه بالفارسية: مسعود جعفري، ط٢، طهران: سعدي.
- [١٥] قطب، سيد (٢٠٠٦م) النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، ط٩، القاهرة: دار الشروق.
- [١٦] ——— (١٩٩٦م) مهمّة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر، ط١، كولونيا - ألمانيا: منشورات الجمل.
- [١٧] ——— (١٩٩٢م) الديوان، جمعه ووثّقه: عبد الباقي محمد حسين، ط٢. المنصورة: دار الوفاء.
- [١٨] ——— (١٩٨٣م)، كتب وشخصيات، ط٣، القاهرة: دار الشروق.
- [١٩] ——— (١٩٨٠م)، دراسات إسلامية، ط٥، بيروت - القاهرة: دار الشروق.
- [٢٠] مندور، محمد (١٩٥٧م)، الأدب ومذاهبه، ط٢، الفجالة: مكتبة نخضة مصر.
- [٢١] ميترا، س، پ (لا تا)، رئاليسم و ضد رئاليسم در ادبيات (الواقعية و ضد الواقعية في الأدب)، ط٢، طهران: نيل.
- [٢٢] النمنم، حلمي (١٩٩٩م)، سيد قطب وثورة يوليو، القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات.
- [٢٣] النويهى، محمد (٢٠٠٠م)، قضية الشعر الجديد، بيروت: دار الفكر.
- [٢٤] هلال، محمد غنيمي (١٩٨١م)، الأدب المقارن، ط٣، القاهرة: دار نخضة مصر.
- [٢٥] هيكل، أحمد (١٩٧٨م)، تطوّر الأدب الحديث في مصر، القاهرة، دار المعارف.
- ب) المجالات**
- [٢٦] آل بويه لنگروي، عبدعلي و مهدي اسمعيلي، (١٣٩٠ش) «الشعر العربي الحديث بين الرومانسية والواقعية»، فصلية اللسان المبين، السنة الثالثة، العدد الخامس، صص ٢٠-٤٧.
- [٢٧] أشرف زاده، رضا (١٣٨١ش) «رومانتيسم، اصول و نفوذ آن در شعر معاصر ايران (الرومانسية؛ أصولها وأثرها في الشعر الإيراني المعاصر)»، مجلة كلية الآداب بجامعة الفردوسي في مشهد، العدد الأول والثاني، سنة ٣٥، صص ٢٥-٣٠.
- [٢٨] أميري، جهانكير و فاروق نعمتي، (٢٠١٢م) «أسلوبية التكرار في التعبير عن شعور الاغتراب (شعر سيد قطب نموذجاً)»، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات (علمية - محكمة)، العدد السابع والعشرون (١)، صص ١١٧-١٣٦.
- [٢٩] البدوي، أحمد محمد (١٤٠٦ق) «قضية الأدب الإسلامي عند سيد قطب»، التوحيد، العدد ١٩، صص ٩٦-١٠٣.

- [۳۰] بروینی، خلیل وحسین چراغی‌وش (۱۳۸۵ش) «نگاهی به مراحل و ویژگی‌های نقد ادبی سید قطب (نظرة إلى المراحل وخصائص النقد الأدبي عند سید قطب)»، الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد ۱، صص ۴۳-۷۱.
- [۳۱] دادخواه، حسن و محسن حیدری (۱۳۸۵ش) «رمانتیسیم در شعر بدر شاکر السیّاب» (الرومانسیّة فی شعر بدر شاکر السیّاب)، مجلة كلية الآداب بجامعة الشهيد باهنر فی کرمان، العدد ۱۹، صص ۱۱۳-۱۲۹.
- [۳۲] سرباز، حسن (۱۴۳۱ق) «سید قطب وتراثه الأدبی والنقدي». مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران (فردیس قم). العدد العاشر. السنة السادسة، صص ۴۱-۵۵.
- [۳۳] سکر، راتب (۱۹۹۶م) «الأفق الرومانسي لصور الطبيعة في الخطاب الشعري السوري خلال القرن العشرين»، المعرفة، العدد ۳۹۰، صص ۹۸-۱۱۲.
- [۳۴] عبد الحمید، حسن أحمد (۱۴۱۶ق) «أصداء شعر العقاد فی شعر سید قطب»، كلية اللغة العربية، القاهرة، العدد ۱۴، صص ۱۱۹-۱۶۴.
- [۳۵] غنیم، کمال أحمد وحنان أحمد غنیم، (۲۰۰۸م) «خصائص التصوير الفني فی شعر سید قطب»، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد السادس عشر، العدد ۱، صص ۴۱-۹۴.
- [۳۶] مقدم متقی، امیر (۱۳۹۰ش) «ظاهرة الغاب فی الشعر العربي الرومانسي»، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد ۲۰، صص ۶۱-۸۴.

سید قطب و نمودهای رمانتیکی در شعر او

علي سليمي^۱، فاروق نعمتي^۲

تاریخ دریافت: ۱۳۹۱/۳/۳۱

تاریخ پذیرش: ۱۳۹۱/۷/۱۶

گرایش به مکتب رمانتیک در شعر سید قطب، ادیب مصری که پیش از این که یک مفسر و اندیشمند اسلامی باشد، یک شاعر و نقاد بوده - غلبه داشته است. او توانسته است نظامی کامل و گسترده در شعر خود ترسیم نماید که در آن، تصویری کلی از مهم‌ترین نشانه‌ها و ویژگی‌های رمانتیک همراه با عرفان شرقی نمود پیدا کرده است. تأثیر شاعر از مدرسه‌ی رمانتیکی عقاد و نیز نگاه عمیق و عاطفی او به هستی، موجب گرایش وی به مذهب رمانتیک بوده است که در سروده‌هایش تبلور یافته است. شوق به وطن و خاطرات گذشته، احساس به غربت روحی عمیق، ذوب در طبیعت و هم‌آوایی با آن، عشق و غزل، گردش در دنیای خیال، انقلاب بر علیه باورهای جامعه، ستایش آزادی، احساس درد و اندوه از بارزترین موضوعات رمانتیکی در شعر سید قطب است. در بیشتر این مضامین، غلبه‌ی قوای روحانی در شاعر جلوه‌گر است؛ به گونه‌ای که وی خود را با هستی و ماورای آن پیوند داده است. این مقاله به شیوه‌ی تحلیلی - توصیفی، جنبه‌های رمانتیکی در شعر وی را بررسی می‌نماید.

واژگان کلیدی: نمودهای رمانتیکی، شعر معاصر مصر، شعر سید قطب، عقاد.

۱. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی کرمانشاه. Salimi1390@yahoo.com

۲. دانشجوی دکتری گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی کرمانشاه. Farooqh.nemati@yahoo.com

Sayed Qotb and Romantic Concepts in his Poems

Ali Salimi ¹, Farooqh Nemati²

Received: 2012/6/20

Accepted: 2012/10/7

Abstract

Inclination to the romanticism has been more prevalent in the poems of Sayed Qotb, an Egyptian who was a poet and critic before turning into an Islamic thinker and interpreter. He could sketch a comprehensive system in his poetry in which the romantic features are the dominant ones along with eastern mysticism. The influence of the Romantic School of Aqqad as well as his own deep and emotional insight on universal existence could incline Qotb towards romanticism which is reflected in his works. Love to nation and traditions, sense of spiritual loneliness along with interest in nature, love and lyrics, imagination, opposition to obsolete social habits, appraisal of freedom, and feeling the pain of others are among the main romantic characteristics in the poems of Sayed Qotb. In most of these, spiritual forces are dominant in a way that the poet links himself to the universe. With descriptive- analytic methodology, the current article tried to study romantic aspects in the poems of Sayed Qotb.

Keywords: Romantic Symbols, Contemporary Egyptian Poetry, Sayed Qotb, Aqqad.

1. Associate Professor, Department of Arabic Language & Literature, University of Razi, Kermanshah, Salimi1390@yahoo.com

2. Ph. D. Student, Department of Arabic Language & Literature, University of Razi, Kermanshah, Farooqh.nemati@yahoo.com